خطبـــة لأنيبال .

وموازنة بينها وبين
خطبة طارق بن زياد مولى موسى بن نصير

للأستاذ حامد عبد القادر
وكيل كلية أصول الدين

تمهيد تاريخى :

حوالى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ، نشأت دولة شرقية فتية فى إفريقية على الساحل الجنوبى الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، فى البلاد المعروفة الآن ببلاد تونس . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة قرطاجة (Carthage) كما يسميها الفرنجة ، أو قريت حديشت كما كان يسميها مؤسسوها ، ومعناها باللغة الفينيقية « القرية الحديثة » أو المدينة الجديدة . وسموها المدينة الجديدة ليفرقوا بينها وبين مدينتهم القديمة عاصمة بلادهم الأصلية التى هى صور ، أو ليميزوها من مدينة كانت تسمى أوتيكا أسست قبلها بنحو ثلاثمائة سنة ، وعلى بعد نحو خمسة عشر ميلا من شمالها الغربى .

ويظن البعض أن قرطاجة أسست فى أواخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، والمؤرخون يقصون فى تأسيسها أسطورة بديعة . ومهما يكن فى هذه الأسطورة من صواب أو خطأ فلا ريب فى أن قرطاجة كانت إحدى المدن الكبرى الهامة التى أسسها الفينيقيون على ساحل البحر الأبيض . وكان تأسيسها فى عصر ملوك صور إحدى عاصمتى الدولة الفينيقية .

نشأت هذه الدولة . وأخذ شأنها يعلو من النصف الثانى من القرن

السادس قبل الميلاد ، وقد بلغت ذروة مجدها فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أيضا ، وذلك حين ظهر فيها قائد حربى دوخ الأمم وفتح البلاد وشهد له أعداؤه بالمهارة الحربية والبراعة فى الحيلة العسكرية ، وعده المؤرخون من أكبر القواد الذين يتحدث عن مفاخرهم التاريخ ، وتشيد بذكرهم الأجيال المتوالية . ذلك هو انيبال أو هنيبال أو حنيبعل [1] ذلك الفارس القرطاجى الذى تولى القيادة العامة لجيش قرطاجة بعد وفاة حميه حَسْدوروبال . وما زال نجمه فى الصعود حتى تمكن بذلك الجيش على قلة عدده أن يكتسح جميع الجيوش المعادية له فى إسبانيا وبلاد الغالة . وصار ينتقل من نصر الى نصر ، ويضم من يحب الانضمام إليه من جيوش أعدائه .

وقد بلغ أوج عظمته حينما دخل مدينة كانيا على الساحل الشرقى من ايطاليا ثم صار على بعد بضعة أميال من رومة . ولولا خذلان قومه له ، وميلهم الى المسالمة والصلح ، وعدم إمداده بالجيوش والذخيرة لكان من المرجح أن يتغير مجرى التاريخ العام باستيلائه على رومة وسيطرته على إيطاليا .

لما وصل ذلك القائد بجيشه إلى شمالى ايطالية ، وشعر بقوة مادية

---

(١) الاسم الأخير أقرب إلى الصواب فى نظرى ، ومعناه رحمة الاله ، لأنه مركب من كلمتين هما حن وبعل ، أما الأولى فمادتها الأصلية ح ن ن وتدل فى اللغات السامية على العطف أو الشفقة أو الرحمة ، وتتصل بها مادة ح ن و ، ويضاهيها بالعربية حنان وأما الكلمة الثانية فهى بعل ، ومعناها السيد أو الرب أو الاله ، وترد فى آخر كثير من الأسماء الفينيقية كما ترد كلمة « إيل » فى أواخر بعض الأسماء العبرية ، وكما يرد لفظ الجلالة فى الأسماء العربية مضافا إليه . وكانت ولادة حنيبعل حوالى سنة ٢٤٨ ق م ووفاته حوالى سنة ١٨٣ ق م

ومعنوية بعد انتصاراته المتوالية ، أراد أن يعد جيوشه لاستئناف السير ، فأمرهم بالراحة لأنه آنس فيهم شيئا من الجهد والتعب ، بعد أن اقتحموا الجبال ، وعبروا الأنهار ، وخاضوا المعارك الدامية .

ويحدثنا التاريخ أن حنيبعل كان سياسيا محنكا ، وخطيبا مصقعا ، وسيتبين لك من الخطبة الآتية مبلغ قوة عارضته ، ومهارته الخطابية ، وقدرته على التأثير فى نفوس المحاربين وتحريضهم على خوض غمار الحروب والحملة على الأعداء حملة رجل واحد .

وفى هذه الخطبة أيضا تتجلى عظمة الرجل ، وشدة اعتداده بنفسه ، واعتزازه بجيشه ، واحتقاره لجيوش أعدائه .

والظاهر من سياق الخطبة أنه خطبها فى جيشه فى مكان كانت جبال الألب من خلفه . ونهر پو الواقع شمالى إيطاليا من أمامه ، وبحر الأدرياتيك عن شماله ، وخليج جنوة عن يمينه .

ولولا خشية التطويل لأتينا بالخطبة جميعها ، فيكفى أن نأتى بنصفها الأول الذى يشبه من وجوه شتى خطبة طارق بن زياد المشهور .

والخطبة كلها بين يدى الآن بالانجليزية ولا يبعد أن تكون مترجمة عن لغة أخرى أو أكثر عن اللغة البونية التى هى وليدة اللغة الفينيقية . والترجمة كما تعلم لا يمكن أن تكون طبق الأصل تماما ؛ لأن لكل لغة روحا خاصة بها ، فليس من البعيد أن يكون هناك فرق بين ترجمتى وبين الأصل البونى . ومع ذلك فالغالب أن يحتفظ المترجم بالمعنى العام ، والصورة التى يريد الخطيب أن يصورها للسامعين مع تصرف فى بعض التفاصيل القليلة الأهمية .

بعد هذا التمهيد أعرض على القارئ الكريم ترجمة النصف الأول من الخطبة فأقول :

قال حنيعل مخاطبا جيشه :

أيها الجنود ، إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى ايديكم من الأسرى ؛ فقد شدّ بكم جميعا الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها . ومن بين أيديكم نهر پو وهو نهر أعرض وأسرع جريا من الرون . ومن خلفكم جبال الألب ، تلكم الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم . فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء أو النصر على الأعداء يوم لقائكم لهم .

أيها الجنود ، لا تيأسوا فإن تلك القدرة الالهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيما عظيما ليكون أجراً لكم على انتصاركم وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقى .

إننا إن لم نستطع ببأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية ، اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلبا ، لكان ذلك جزاء وفاقا لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما أعد لكم من ثروة رومة الطائلة ، وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها الأمم الأخرى . كل هذه وأصحابها ستكون لكم وفى حوزتكم .

إذكم أيها القوم طالما استعبدتم واستخدمتم فى رعى الأغنام والماشية فوق تلك الجبال الشاسعة ، جبال لوسيتانيا وكلتيبريا ، ولما تجزوا بعد جزاء يساوى ما تحملتم من مشاق وصادفتم من أخطار . أما الآن فقد آن أن تعوضوا خير عوض على مسيركم الشاق المجهد ، وعلى اقتحامكم الجبال الشاهقة ، وعبوركم الأنهار الكثيرة ، وجوسكم خلال الديار التابعة

لأمم عديدة مسلحة ، وهنا حيث جعلت العناية الالهية منتهى سعيكم ومحط رحالكم ، وههنا تضعون حدا لجهودكم الحربية المجيدة ، وتجزون الجزاء الأوفى على خدماتكم التى أديتموها تمام الأداء .

إنى أربأ بكم أيها القوم أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن إعلان حرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس ولتعلموا أنه كثيرا ما تغلب جيش مستصغر على عدو مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس وكم ثلت عروش فخمة ، وأفنيت أمم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

وإنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق وصيتها الذائع فماالذى يبقى لديها مما تستطيع أن تقف به أمامكم ، وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم ؟

وإننا لو تغاضينا عن خدماتكم الجليلة فى تلك الحروب الطاحنة المتعاقبة التى دامت عشرين حولا أظهرتم فيها ماأظهرتم من البسالة والاقدام ونلتم فيها ما نلتم من الفوز والنصر المؤزر . أقول لو تغاضينا عن هذه كلها لبقيت لكم مفاخر أخرى أعلى شأنا وأجل منزلة .

ألم تأتوا من أسوار هركوليس ، ومن أقاصى المحيط ، بل من أقاصى حدود الأرض ؟ ألم تجوسوا خلال ديار لأقوام عرفوا بالمهارة الحربية أمثال الاسبان والغالة ؟ ألم تصلوا إلى هذه البلاد منتصرين فائزين ؟

ومع ذلك فمن ستقاتلون ؟ ستقاتلون فلول جنود قواهم غير ناضجة ، وجيشا يعوزه النظام . قد كسرت شوكته ، وحاصره الغالة صيف العام الماضى . وما بالكم بجيش لايعرف قائده ولا يعرفه قائده ؟

* * *

بعد ذلك الوقت بنحو تسعة قرون خرج طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ

من إفريقية مؤتمرا بأمر سيده موسى بن نصير ، وعبر البحر فى جيش قليل العدد يريد فتح الأندلس . وقد كانت ظروفه تشبه ظروف حنيبعل حينما اراد السير إلى رومة .

ويروى لنا التاريخ أن لُذَريق ملك القوط لما علم بقدوم طارق وعرف غرضه ، أعد جيشاً جرارا لمقاتلته ؛ فخاف طارق أن يجد الرعب سبيلا إلى قلوب جنوده لقلتهم ؛ فأحرق السفن التى أقلتهم حتى يقطع كل أمل فى فرارهم وعودتهم إلى بلادهم . ثم قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حثهم على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله فقال :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ؛ وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فيما حظكم فيه أو فر من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات

فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون » .

* * *

والمرء لا يعجب كثيرا لما بين هاتين الخطبتين من تشابه بين وتقارب ظاهر ، لأن الظروف التى دعت إليهما تكاد تكون واحدة ، ومنزلة كل من الخطيبين من جيشه تكاد تكون واحدة أيضا ، فكل كان يهاجم جيشا كبير العدد بجيش قليل ، وكل كان فى بلاد أجنبية عبر البحر إليها ، وكل كان ينتمى إلى أمة فقيرة ، ولو نسبيا ، فى حاجة إلى التوسع فى الفتوح لأسباب سياسية اقتصادية ، وكل كان يقف من عدوه ومن البيئة الطبيعية المحدقة به موقفا حرجا فى حاجة إلى التشجع والتجلد .

وإنك إذا قرأت كلا من الخطبتين ثم بحثتهما بحثا دقيقا ، ثم وازنت بينهما ، وجدت الشبه بينهما واضحا جليا كأن الروح التى أملتهما واحدة .

وأين أظهر نقط الاتفاق فى الخطبتين ؟ إقفال باب الأمل فى الفرار والهزب من وجه المحاربين ، والتخويف من العقبات الطبيعية المحيطة بهم من كل جانب ، والتخيير بين الهلاك التام وبين النصر المبين ، والترغيب فى الغنائم التى يحصلون عليها لو انتصروا .

غير أنك تجد فى خطبة حنيبعل نقطتين واضحتين تمام الوضوح هما تذكير الجنود بماضيهم المجيد وانتصاراتهم الباهرة ، وتحقير شأن العدو واستصغار قوته وكثرة عدده .

ولخطبة طارق على قصرها روعة خلابة ، وقوة مؤثرة . وليس أدل على شدة تأثيرها من أن الجنود سمعوها فأطاعوا قائدهم ، وأتمروا بأوامره فبلغوا الغاية المقصودة .